المقدسة بعد تبادر نوايا باقتسام إيطاليا بين الباب العالي والملك الفرنسي. في ذلك العهد ما كانت فرنسا تعلن صراحة تحالفها الاستراتيجي مع الباب العالي وكانت تزعم حفاظها على الوضع السائد في إيطاليا، رغم علمها بالمخططات العثمانية وبتحريك البيلرباي في الجزائر لمهاجمة القوات الإسبانية في المتوسط، ما أوحى لشارل الخامس أن مشروع إرساء نظام أوروبي يعضده الحماس الديني ضد "المحمّديين" قد بدأ يختلّ.

يستعيد بليغريني إحدى صفحات الصراع التي تخلّدت في التاريخ، حتى تجذّرت في اللاوعي الجمعي للإيطاليين والإسبان مخاوف دائمة من المسلمين: "لما صار خيرالدين بربروس أميرال الأسطول العثماني، قاد بنفسه سنة 1534م سلسلة من الهجمات وعمليات الإنزال على السواحل الإيطالية في مناطق شترارو وسان لوشيديو، في كالابريا، وفي عدة مناطق من خليج نابولي، في سبارْلونغا وفي فوندي، وفي إقليم لاتسيو. ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى عبث القرصان الطاعن في السن بسواحل نابولي وبوليا ودلماتي.

كان العام اللاحق وخيمًا أيضًا على الشواطئ الإيطالية، حين سار أسطول بربروس حذو السواحل مهدّدًا المناطق المجاورة، إلى أن بلغ كالابريا وكامبانيا، ثم احتلّ غايّتا حتى بلغ نهر التبر وعبّأ مؤونته من ماء الشرب. بنى قاعدة قرب غروسيتّو، انطلقت منها غاراته إلى ماريمّا؛ وفي إحدى تلك الغارات التي قادها أحد أعوان بربروس، المسمى نظام، هاجم غيلة في توسكانا تالاموني، قرب أوربيتللو. حيث أخرج جثّة برتولوميو بيريتي من قبره وأحرقها ثم ذرى رمادها؛ فقد خرج النبيل برتولوميو قبل عام، على رأس جيش للكنيسة، في غزوة للشرق، خلّفت دمارًا مسّ ميتيلان، المدينة التي وُلد فيها بربروس.

فما كان الأتراك فحسب يثيرون الهلع في الضفة الشمالية للمتوسط بل البرباريسك أيضًا المسمون بـ"موريسك إفريقيا". وبالفعل كانت حربا نفسية مشئونة ما كانت الإمبراطورية العثمانية هي الصانع لها وحدها بل المستفيد منها في بسط هيمنة الهلال.

في الفصل الأخير يتعرض الكاتب إلى وصول الحملة إلى أوجها ومن ثمة تراجعها. ففي ظل تضييق الخناق على إيطاليا، ارتأى شارل الخامس ألا سبيل لبثّ الوهن في الخصم العثماني المتحالف مع الفرنسيين سوى بنقل الحرب إلى ديار حلفائه. فكان قرار إبحار أسطوله من برشلونة عبر إيطاليا إلى تونس ومهاجمتها، وفي منطقة شفيتا فاكيا كان اللقاء بالبابا الذي بارك الأسطول، المتوجه إلى صقلية ثم رأسًا إلى تونس. كان دخول تونس كارثة كما يصف بليغريني الأمر بإيجاز مخلّ. وقد تركز التدنيس على جامع الزيتونة والمكتبات المجاورة كما وصف الوزير السّراج الحدث في مؤلف "الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة" بقوله: "وقسّمت المدينة (تونس) إلى مؤمن وكافر، وأُهين المسجد الأعظم ونُهبت خزائن الكتب الّتي كانت به، وداستها الكفرة بالأرجل وألقيت تصانيف الدّين بالأزقّة تدوسها حوافر الخيل والرّجال؛ حتّى قيل إنّ أزقّة الطيبين كانت كلّها مجلّدات ملقاة تحت الأرجل. وضُربت النّواقيس وربطوا الخيل بالجامع الأعظم، ونُبش قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم يجدوا به إلاّ الرّمل، وبالجملة فعلوا ما تفعله الأعادي بأعدائها وكانت كلّ دار مسلم يجاورها نصرانيّ". يذكر بليغريني أن 15 ألفًا من سكان المدينة قد تمت إبادتهم، وهم ثلث الأهالي، في حين فرّ الثلث الثاني، والثلث الأخير كان مصيرهم النخاسة. ثم نصّب شارل الخامس مولاي الحسن ووقّع معه عهدًا يقضي بعدم اتخاذ عبيد من النصارى في المدينة والتزام الملك الحفصي بعدم استضافة موريسكيين أندلسيين، ناهيك عن غرامة سنوية تُسدَّد لإسبانيا من المال والخيل مع إقامة حامية دائمة في تونس بألفي جندي بأُسرهم في منطقة حلق الوادي.

كان سقوط بودا المجرية بأيدي العثمانيين إعلانًا بانتهاء حلم إنشاء سد منيع أمام الأتراك شرق أوروبا. وزادت أوضاع القرن السادس عشر المتميزة بالخلافات الأوروبية من حدة تبخر أحلام الحملة الصليبية وإنشاء الإمبراطورية العالمية لشارل الخامس. ويمكن عدّ العام 1541م عام انكفاء الحملة وتوقف شارل عن شن حروبه على الإمبراطورية العثمانية.

الكتاب يتناول مرحلة تاريخية مهمة في تاريخ الصراع العثماني الإسباني، ولكن يطغى على بعض فقراته طابع الحكي ما يجعل محتواه أقرب إلى النص الأدبي منه إلى النص التاريخي. فكتابة التاريخ ليست سرد أحداث فحسب بل تعليق على جريانها وتفسير لها. ثمة صرامة منهجية مفقودة في تناول القضايا التاريخية تتخلل الكتاب، كما أن كثافة الخلاصة التاريخية تعوز مضامينه، ناهيك عن غياب تطرق صاحبه بعمق للعسف الذي لحق بالمسلمين أكان في الأندلس أو في بلاد المغرب، إبان تلك الحملة الشعواء التي نعتها بالمستحيلة وهي بالأحرى مدحورة، وهو أمر جوهري في ذلك العهد.

المؤلف:

نبذة عن المؤلف: ماركو بليغريني، مؤرّخ وأستاذ التاريخ الحديث وتاريخ عصر النهضة في جامعة برغامو في إيطاليا. له جملة من المؤلفات منها: "حروب إيطاليا" (2009)، "البابوية في عصر النهضة" (2010)، "الحملة الصليبية في عصر النهضة تبدلات طارئة على أسطورة 1400-1600م" (2014).

الجاسوس الكمّي

بالنسبة إلى أي شخص قال ذات يوم إن ديفيد أغناتيوس، كاتب العمود في "واشنطن بوست" والحائز على جائزة والروائي الشعبي، يدافع بشدّة عن وكالة الاستخبارات المركزية، فكتابه الجديد عبارة عن دحض مثير لهذا كله. "الجاسوس الكمّي" The Quantum Spy قصّة مثيرة مزخرفة بشكل جميل، تتجلى فيها وكالة الاستخبارات المركزية بوصفها مؤسسة عنصرية ومتحيزة جنسيًا، ما يمكن أن يخدم مصالح أجنبية معادية.

حرب التقنية

ما يحافظ على سير حبكة رواية "الجاسوس الكمّي" وتقدّمها هو المنافسة بين الولايات المتحدة والصين لتطوير جهاز كمبيوتر كمي سيفكّ الرموز ويؤدّي أعمال تجسس أخرى أسرع بملايين المرات من الآلات التقليدية.

يبدو أن شركة سيانل قريبة بما فيه الكفاية لتحقيق اكتشاف رئيسي، لذلك تجبرها الوكالة على إخفاء عملها عن الرأي العام حتى لو كان مالكها، المهووس جاسون شميت، يريد أن يستفيد العالم كله من هذه التقنية الجديدة. وتتضمّن الرواية جدلًا بين شخصيات عدة حول انفتاح التقانة الحديثة من جهة مقابل السرية من جهة أخرى.

أما بطل إغناتيوس المفضل فهو هاريس تشانغ، النجم الصاعد في وكالة الاستخبارات المركزية. نشأ في فلاغستاف، وهو وطني بكل ما للكلمة من معنى؛ خدم بشجاعة ونجاح ضابطًا في الجيش في العراق قبل تجنيده جاسوسًا.

يقرأ تشانغ قصص المؤامرات السياسية في تروبلوب في القرن التاسع عشر لفهم طرائق واشنطن الحالية، التي يجدها مثبطة للعزيمة. كما يشعر بالحيرة بسبب الفكرة الطاغية على بعض الزملاء ومكتب التحقيقات الفيدرالي بأن الأمريكيين الصينيين قابلون ليصبحوا عملاء لصالح بكين.

تشويق استخباري

هذه الفكرة الخاطئة نشرها لي زيان، رئيس وزارة أمن الدولة الصينية الذي يحاول تجنيد تشانغ من خلال جاسوس زرعته أم أم أس (الصين) في الوكالة. ويضع جون فانديل، مدرب تشانغ الوضيع والجاهل ثقافيًا، خطة للقبض على الجاسوس وعرقلة حركة أم أس أس الواقعة أيضًا تحت حصار فرع المخابرات العسكرية الصينية. يصبح هذا معقّدًا بشكل معقول، بسبب الخلافات الداخلية والخيانات على جانبي المحيط الهادئ.

الجدير ذكره أن أغناتيوس قادر حتى على جعل المعلومات العلمية على أجهزة الكمبيوتر الكمي مفهومة للقارئ العادي. كما أنه لا يكثر في الكلام عنها. ووفقًا لمدير وكالة الاستخبارات المركزية، الحوسبة الكمومية "نقلة نوعية، مثل غاليليو ونيوتن". وهزيمة الصينيين في سباق الكمبيوتر الكمي هو "كإتمام مشروع مانهاتن والتقاط العميلين روزنبرغ، في آن معًا".

يستوفي كتاب "الجاسوس الكمّي" شروط رواية التجسس الجيدة، بما في ذلك التصوير الحي للمواقع الملونة، من سنغافورة إلى بكين وفانكوفر ومدينة مكسيكو وأمستردام. هذا الكتاب شبيه بفلم جايسون بورن، لكنّه يتّسم بالذكاء والصدقية، وفيه أيضًا عرض ذكي للّون المحلي للعاصمة، من مخابئ وكالة الاستخبارات المركزية على طريق غليب وصولًا إلى أولد تاون، حيث يعيش المشتبه به الرئيس.

مسلية ومقلقة

بقدر ما تعتبر هذه الرواية مسلية، فهي مثيرة للقلق في تصويرها التحيز العنصري والجنسي في مكان لا تُعتبر فيه هذه المواقف مجرد ظلم؛ بل تعيق الطريق أمام المهمة القيّمة التي تؤدّيها المؤسسة. في هذا السياق، تحدثت خبيرة أمنية تدعى كيت ستورم كيف أنّها "أحبّت الوكالة، لكنّها كرهت طريقة تحويل النساء إلى المناطق الهامشية، حيث تعمل المرأة مسؤولة عن إعداد التقارير، في خدمة رجل برتبة "ضابط الاستخبارات". وتخضع عاملة أخرى أيضًا لمعاملة سيئة للغاية لدرجة أنّها تتنقم بطريقة شنيعة.

تجدر الإشارة إلى أن أغناتيوس، الروائي الجاسوس، يفتقد إلى بعض الأمور. فهو لا يكتب جملًا جميلة مثل جون لو كاريه، كما تفتقر روايته إلى البنية المتوازنة التي نجدها في روايات تشارلز مكاري عن وكالة الاستخبارات المركزية. لكن، بالنسبة إلى المعلومات الداخلية حول العمل اليومي والحياة الشخصية للجواسيس في أمريكا، فإنه الأفضل.

في صفحة الشكر والتقدير، يقول المؤلّف إن الكتاب خيالي تمامًا، لكنّه الشيء الوحيد في الكتاب الذي واجهت صعوبة في تصديقه.

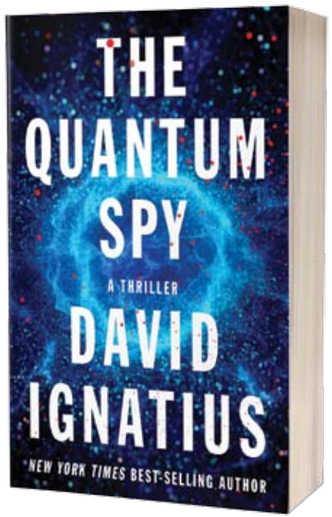

معلومات الكتاب

الكتاب: "الجاسوس الكمّي" The Quantum Spy
المؤلف: ديفيد أغناتيوس
الناشر: منشورات دبليو نورتون
اللغة: الإنجليزية
تاريخ النشر: 7 نوفمبر 2017
عدد الصفحات: 323 صفحة
الرقم المعياري الدولي للكتاب: ISBN-10: 0393254151